مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (34) العدد (3)2012
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (34) No. (3) 2013

استدعاء الشخصيات التراثية في شعر نزار قباني

الدكتور خالد عمر يسير*

(تاريخ الإيداع 26 / 2 / 2012. قبل للنشر في 12 / 6 / 2012)

□ ملخّص □

يتناول البحث موقف نزار قبَّاني من التراث، واستدعاءه لشخصياته، التي تنوَّعت بين شعريَّة، ودينيَّة، وعامَّة، وقد أظهر أنَّ هذه الشخصيات ارتبطت بموضوعين رئيسين: هما المرأة، والوطن، ووظِّفت لخدمتهما، ثمَّ بيَّن بعض المزالق التي وقع الشاعر فيها حين استدعى هذه الشخصيات في شعره.

الكلمات المفتاحية:
التراث.
استدعاء الشخصية التراثية.
توظيف الاستدعاء.
مزالق الاستدعاء.

* أستاذ مساعد– قسم اللغة العربية– كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة تشرين.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (34) العدد (3)2012
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (34) No. (3) 2013

Recall of Heritage Figures in Nizar Kabbani's Poetry

Dr. Khaled Omar Yaseer *

(Received 26 / 2 / 2012. Accepted 12 / 6 / 2012)

□ ABSTRACT □

The research deals with poet Nizar Kabbani's view of the heritage, and his mentioning of its characters that varied between poetic, religious and general. The research shows the correlation of these characters with to major subjects: Woman and homeland. The poet employed his mentioning of these characters in the service of both the subjects. The research shows some pitfalls in which he fell when he recalled these characters in his poetry.

Key words: Heritage, mentioning, employment of the recall, pitfalls

* **Associate Professor, Faculty of Arts & Humanities, Department of Arabic Literature, Tishreen University, lattakia, Syria.**

مقدِّمة:

ترجع علاقة الشعر العربي المعاصر بالتراث إلى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين حين راح الشعراء – حينذاك – يعارضون فحول الشعر العربي القديم، كما فعل البارودي وشوقي، وحين راحوا يعيدون نظم بعض الأحداث القديمة، كما فعل أحمد محرّم في/ الإلياذة الإسلامية/، وعمر أبو ريشة في/ ملحمة النبي/، والزهاوي في/ الجحيم/ .

إنَّ هذه العلاقة أقرب إلى التسجيلية والانطباعية؛ لأن الشاعر يستعيد التراث استعادة تعيد الموقف القديم كما هو، دون أن تعيد بناءه برؤيا جديدة، تجعل الوحدة العضوية تواصلاً جديداً بين الماضي والحاضر، وتُشكِّل الشخصية التراثية على ضوء الواقع الراهن، وتكون نابعة من فهم التراث، ومن استيعاب حركة الواقع، والوعي بالعلاقة الجدلية بين الفن والحياة (1) .

وفي منتصف القرن الماضي/ الخمسينيات/ اتجه الشعراء الحداثيون إلى التراث اتجاهاً قوياً، يدفعهم إلى ذلك دوافع عدة: منها ما هو فني، يتمثل بتعزيز الجانب الموضوعي في الشعر على حساب الذاتية، ويتمثل في خلق الشخصية الدرامية التي تسهم في تقوية الصراع، ومنها ما هو سياسي اجتماعي، يبدو في قول الحقيقة على لسان الأبطال التاريخيين بعيداً عن صوت الشاعر خوفَ المساءلة، واجتماعي يتمثل في إحساس المرء بالاغتراب عن عصره الذي سحقته الماديّة، وقد دفعه هذا الإحساس إلى الينابيع الأولى للبشرية، ينهل من صفائها ونقائها.

وراحوا يبحثون في أحداث التراث وأشخاصه عما يدعمون به المضامين الشعرية، والأشكال الفنية، فبرزت الشخصيات التراثية في أشعارهم بوجوهها المختلفة، مضفية على تجاربهم الشعرية **((غنى وأصالة وشمولاً في الوقت ذاته، فهي تغنى بانفتاحها على هذه الينابيع الدائمة* التدفق بإمكانات الإيحاء ووسائل التعبير، وتكتسب أصالة وعراقة باكتسابها هذا البعد الحضاري التاريخي، وأخيراً تكتسب شمولاً وكلية بتحررها من إطار الجزئية والآنية إلى الاندماج في الكلي وفي المطلق، لأن النماذج التراثية التي يعبّر الشاعر من خلالها، تمكِّن الشاعر من الخروج عن نطاق ذاتيته المغلقة إلى تجربة الإنسان في هذا العصر، وفي كل عصر))** (2) .

ولكي يصبح التراث في تجربة الشاعر العربي المعاصر جزءاً داخلاً في ثوابته الفكرية فإن ذلك يتطلب – في رأي الباحث طراد الكبيسي – ثلاثة أمور، هي:

((1- رؤية ذاتية نقدية متسعة .

2- تحقيق العلاقة الجدلية بين الموضوعة التاريخيّة والموضوعة المعاصرة الموظف لها.

3- تكافؤ العلاقة بين الرؤية الذاتية والتقدير الشخصي من جهة، وبين الحقيقة الموضوعية في إطارها التاريخي من جهة أخرى)) (3). فهل تنطبق هذه الأمور الثلاثة على شاعرنا نزار؟.

إنَّ علاقة نزار قباني بالتراث لها أكثر من وجه، فهو تارة رافض له، يقول في ذلك: **((حلمتُ أن أكتب قصيدة لحسابي الخاص، دون أن أسحب أي قرش... من ميراث العائلة.. وأموالها الطائلة الموجودة في "كتاب الأغاني" و "العقد الفريد" ... وبنك "الخليل بن أحمد الفراهيدي"))** (4) . وهو تارة أخرى مع التراث، ومدافع عنه **(خطأ كبير أن نتصور أن الحديث لكي يكون حديثاً، لا بدَّ من ارتكاب جريمة قتل ... ضد السابق له زمنياً))** (5) ، ويقول أيضاً: **((الخطر الأكبر الذي يحيط بالقصيدة العربية هو أن تقطع جذورها نهائياً مع الأصول الشعرية العربية، وتصبح طفلاً بلا نسب))** (6).

---

* **هكذا ورد في الأصل، والصواب: دائمة التدفُّق.**

ويمكن تفسير هذه العلاقة متعدِّدة الأوجه بحرص الشاعر على التميُّز في ميدان الشعر،فهو لايريد أن يكون نسخة مألوفة، ومعروفة عن أي شاعر تراثي،وقد أشار إلى ذلك في أكثر من موضع في كتابه "ماهو الشعر ؟ " (7) .

ويتضح هذا الموقف من التراث أكثر حين ردَّ على سؤال وُجِّه إليه وهو: كيف تنظر إلى التراث؟.، فأجابه **((التراث هو الرحم الذي تربينا في داخله جميعاً، وتشكَّلت فيه ملامحنا الثقافية الأولى.. والذين يقولون: إن لا تراث لهم. كالذين يقولون: إن لا أمّ لهم. التراث هو صديق نأنس إليه. ونرتاح إلى مشورته. وليس رجل بوليس يضع في يدينا (الكلبشة)، ويفرض علينا الإقامة الجبرية. إنني أفهم التراث على أنه نهر عظيم شربنا كلنا من مائه، ولا أفهمه على أنه ضريح من الرخام ندفن فيه طموحنا))** (8) . إنَّ التراث – هنا – أشبه بالمنهل الذي لا بدَّ للشاعر المثقَّف من أن ينهل منه، وهو صديق نستشيره حينما نحتاج إلى مشورته، لكن ذلك مشروط بأن لا يتحول التراث إلى قفص نسجن فيه أنفسنا، فنتحوّل حينذاك إلى نسخ مكرورة. فللشاعر مطلق الحرِّية في التعامل مع التراث وفقاً لمتطلباته الفنية والفكرية، بعيدا عن أية مؤثرات خارجية – دينية أو علمية – قد تُفرض عليه. هذا هو موقف الشاعر من التراث – ومن شخصياته – في النثر، أما موقفه منه في الشعر فيظهر في الصفحات التالية.

أهميَّة البحث وأهدافه:

يهدف البحث إلى توضيح علاقة الشاعر نزار قبَّاني بالتراث، وتوظيفه له، ومدى نجاحه في ذلك التوظيف، ويهدف إلى تقديم نقد تطبيقي في هذا المجال،قد يشكِّل تمهيدا أو نموذجا لدراسات أخرى تتناول علاقة الشاعر ليس بالشخصيات التراثية فقط،وإنما علاقته بالتراث بصورة عامة.

ومن مبررات هذا البحث أن الشاعر رائد من رواد الشعر العربي الحديث،وأنَّ استدعاءه الشخصيَّات التراثية ظاهرة واضحة في شعره،فهي تشغل حيِّزا واضحا فيهمن جهة، وتتنوَّع أشكال استدعائها من جهة أخرى، ولم تدرس –في حدود اطلاعي– حتى الآن من جهة ثالثة.

منهجية البحث:

استفاد البحث من المنهج التاريخي حين تتبَّع علاقة الشاعر بالتراث في نثره، وفي شعره، وحين تتبَّع الشخصيات التاريخيَّة المستدعاة في كتب التاريخ، واستفاد من المنهج النفسي أيضاً حين ربط بين الشاعر وشعره. كما اعتمد البحث على الموازنة بين نزار قبَّاني وبعض الشعراء أمثال البيَّاتي وغيره.

الشخصيات التراثية في شعر ه:

إنّ التراث لا يشكل همّاً في دواوينه الأولى **((قالت لي السمراء، وطفولة نهد، وأنت لي، وسامبا، وقصائد))**.(9) فهو غير معني به، ولذا لم تظهر شخصياته في شعر هذه المرحلة، فما يعنيه هو المرأة كما هي في الواقع ، وكما يرجو لها أن تكون.

ظهرت الشخصيات التراثية في شعره في مرحلة تالية لتلك الدواوين، ومرد ذلك إلى أمرين: الأول تأثر الشعر العربي الحديث – عامة – بدعوة ت.س إليوت إلى الالتفات إلى التراث والاستفادة منه، والثاني حرب حزيران التي دفعت الشعراء العرب إلى التراث تمسكاً بأصالتهم وعروبتهم من جهة، وبحثاً عن رموز عربية إسلامية تُغني تجاربهم الفنية من جهة ثانية، وهذا يتوافق مع ما افترضه أحد الباحثين، حين ربط بين أثر حرب حزيران على الوجدان العربي،

وظاهرة تحوّل عدد كبير من الشعراء العرب إلى توظيف الرموز العربية الإسلامية في أشعارهم (10) ، ويمكن النظر إلى الشخصيات التراثية في شعر نزار من جانبين : المرأة، والوطن.

1- الشخصيات التراثية و موضوع المرأة:

يحفل شعر نزار ونثره الفني(11) بالشخصيات التراثية، ويتعامل معها – غالباً – على أنها رموز ذوات دلالات محددة، وليس على أنها حالة، أو تجربة إنسانية ذات دلالات متعددة، كما هو الأمر عند معظم الشعراء البارزين: أدونيس ومحمود درويش و...

يعبّر الشاعر في قصيدة " رسالة إلى رجل ما " من ديوان " يوميات امرأة لا مبالية " عن الاضطهاد النفسي والجسدي الذي تعاني منه المرأة العربية، ويصف العلاقة غير المتكافئة بينها وبين الرجل الشرقي المستبد، الذي ينظر إليها على أنها وليمة، ولذا فهو يدعوها للثورة على الاضطهاد والظلم اللذين تعاني منهما، فيقول في المقطع الثالث من القصيدة المذكورة على لسان إحدى نسائه المضطهدات، مصوراً ذعرها والإرهاب الذي يمارس عليها:

يا سيّدي ! / عنترة العبسي خلف بابي / يذبحني / إذا رأى خطابي / يقطع رأسي / لو رأى الشفاف من ثيابي / يقطع رأسي / لو أنا عبّرت عن عذابي / فشرقكم يا سيّدي العزيز / يحاصر المرأة بالحراب / وشرقكم يا سيّدي العزيز / يبايع الرجال أنبياء / ويطمر النساء في التراب (12)

يريد الشاعر أن يصوّر القيود الشديدة التي يفرضها مجتمع الرجل على المرأة، ويرى أنها قيود قاسية، ومرفوضة؛ لأنها روحها، وجسدها، وأراد أن يضع معادلاً لقوة الرجل فوجده في الشخصية التراثية " عنترة العبسي " الشاعر الجاهلي المشهور، والعاشق المعروف أيضاً، وجعل منها رمزاً للقوة المستبدة التي يتصف بها الرجل الشرقي الذي لا يعترف بحق المرأة في التعبير عن عواطفها، بل لا يعترف بحقها في الحياة /**ويطمر النساء في التراب**/، وربما تضمَّن السطر السابق إشارة إلى عادة العرب في وأد البنات قبل بعثة الرسول –ص– لقد أخذ من هذه الشخصية التراثية متعددة الجوانب جانباً واحداً فقط هو جانب القوّة فهل وفق في ذلك؟

ويقول في قصيدة " اليوميات " من الديوان نفسه مصوراً غباء الرجل الشرقي و عصبيته واستبداده بالمرأة:

أبي صنف من البشر / مزيج من غباء الترك / من عصبية التتر / أبي .. أثر من الآثار / تابوت من الحجر / تهرأ كل ما فيه / كباب كنيسة نخر / كهارون الرشيد أبي / جواريه ، مواليه ، / تمطّيه على تخت من الطرر / ونحن هنا / سباياه ، ضحاياه / مماسح قصره القذر (13).

إنّ استدعاء شخصية هارون الرشيد – هنا – أكثر توفيقاً من سابقتها، فشخصية الخليفة ذات وجوه متعددة، اتكأ الشاعر على وجه واضح منها هو القائد المالك والحاكم، ووظفه توظيفاً فنياً ناجحاً قائما على أساس بلاغي موروث (الشبه بين المشبَّه – الأب – والمشبَّه به – هارون الرشيد – مع ذكر أداة التشبيه –الكاف–) . فقد جعلنا نحسُّ أن معاناة المرأة اليوم هي استمرار لمعاناة نظيرتها في التاريخ، فامتدت التجربة الشعرية المعاصرة على مساحة زمنية واسعة، وعلى شرائح بشرية كبيرة، ممّا حمّلها بعداً إنسانياً عميق الغور في الزمان والمكان.

ويقول الشاعر في قصيدة " دموع شهريار " على لسان أحد أبطاله، مستدعياً شخصية الأمير شهريار من ألف ليلة وليلة، ويلاحظ هنا أن قباني يتمثل الشخصية التراثية وتجربتها معاً، لأن التجربة التراثية ممتدة في بنية القصيدة كلها:

لن تفهميني أبداً ... / لن تفهمي أحزان شهريار .../ فحين ألف امرأة / ينمن في جواري ... / أحسُّ أن لا أحد ../ ينام في جواري (14).

إنه يبيّن لنا أن مأساة شهريار ناجمة عن المفهوم الخاطىء للجنس " فرار، مخدر، ضريبة، بغير اختيار " ، وأن الجنس فقد بعده الإنساني، فهو يريد أن ينتصف له عبر شخصية شهريار، وذلك من خلال رؤيته للعلاقة بين الرجل والمرأة القائمة على العطاء المتبادل بينهما، يقف كل طرف فيها نداً للآخر.

ويستلهم في قصيدة " ديك الجن الدمشقي " (15) شخصية الشاعر المعروف ديك الجن الحمصي، الذي يُروى عنه أنه قتل محبوبته " ورد " ، وندم أشد الندم على فعله هذا (16) ، وتتمثل هذه القصيدة تجربة الشخصية التراثية، وتتبع أحداثها. ولكنها في النهاية تعبّر عن العلاقة بين الرجل والمرأة على طريقة نزار قباني.

لقد ابتعد الشاعر نزارفي قصيدته المذكورة آنفا/ديك الجن الدمشقي/ عن النص ليفسح المجال لـ " ديك الجن " الذي يمثّل قناعاً فنياً فيه، يحكي لنا بالنيابة عنه أفكاره وأحاسيسه عن العلاقة بين الرجل والمرأة حينما تكون قائمة على سيطرة الرجل على المرأة، والخيبات التي تصيب الرجل جرّاء هذه العلاقة:

إنّي قتلتك واسترحتُ يا أرخص امرأة عرفتُ

....

حسناء.. لم أقتلك أنتِ.. وإنما نفسي.. قتلتُ..

2- الشخصيات التراثية وموضوع الوطن:

ترتبط علاقة التراث بالوطن ارتباطاً وثيقاً، فبقدر ما يتعرض الوطن للخطر، بقدر ما يكون الاتجاه نحو التراث بحثاً عن دعائم للوطن المأزوم. إن هزيمة حزيران وما خلفته من فجيعة ومرارة وخيبة أمل دفعت الشعراء إلى التراث دعماً للثقة بالنفس، وبحثاً عن أشكال جديدة تقلل من النبرة الذاتية في شعرهم، فكان استدعاء الشخصية التراثية وسيلة لتخفيف ذلك بين وسائل عدة.

إنّ نزار قباني واحد من هؤلاء الشعراء الذين التجأوا إلى التراث مؤمنين بدوره في تقوية النفس العربية المهزومة، وفي توجيه الحاضر نحو مستقبل واعد. وتتنوع الشخصيات المستدعاة في شعره، ومنها شخصيات شعرية، وأخرى دينيّة، ومنها ما هو عام.

فمن الفئة الأولى امرؤ القيس، وعنترة، وجرير، والخنساء، يستدعي الشاعر في قصيدته "منشورات فدائية على جدران إسرائيل" الصادرة عام 1969 أسماء تراثية كثيرة، متنوعة، من بينها الشاعران: امرؤ القيس وأبو تمام، يقول في المقطع الثالث عشر منها، معبراً عن تمسك العربي بقضيته النضالية، واحتماله وصبره، وعزيمته التي لا تتزحزح:

باقون في صوت المزاريب / وفي أجنحة الحمام / باقون في ذاكرة الشمس / وفي دفاتر الأيام / باقون في شيطنة الأولاد، في خربشة الأقلام / باقون في الخرائط الملونة / باقون في شعر امرىء القيس وفي شعر أبي تمام / باقون في شفاه من نحبهم / باقون في مخارج الكلام (17).

إنّ خلود الشاعرين المذكورين – هنا – هو معادل لخلود نضالنا في وجه الأعداء الصهاينة ، فكما حفظ التاريخ أسماء هؤلاء المبدعين ، واعترف بعبقريتهم ، فإن الحاضر – أيضاً – سيحفظ هذا النضال المشرّف في وجه العدو ، وسيعترف بدوره في رسم طريق النصر، ساعدت الجمل الاسميَّة التي تألَّف المقطع كلُّه منها ، على تقرير فكرة الخلود التي عبَّر عنها الشاعر .

ومن رجال الدين وهم كثر شخصيات: المسيح عليه السلام، وعمر بن الخطاب، وفاطمة الزهراء، وغيرهم..(18).
ففي قصيدة "فتح" التي يستبشر فيها فجراً جديداً ، يشرق على الأمة العربية بعد ظلام مرير، وركود سقيم، ويرى فيها طلائع نصر تحمل في طياتها طريق الوصول إليه:

وبعدما.../ من يأسنا يئسنا / جاءت إلينا فتح / كوردة طالعة من جرح / كنبع ماء باردٍ يروي صحاري ملح / وفجأة ثرنا على أكفاننا وقمنا .../ وفجأة ،/ كالسيّد المسيح .. بعد موتنا نهضنا (19).

تعبّر شخصية المسيح عليه السلام في المقطع السابق عن النهوض والانبعاث ، الذي يأتي بعد موت ، إن انطلاقة العمل الفدائي الذي ساهم في إبراز الحق العربي وتثبيته أشبه بقيامة المسيح ، وما ذُكِر سابقا عن دور الجملة الاسميَّة –بدلالتها على الثبات وعدم التغيير، وملاءمة ذلك لفكرة الخلود –، نرى –هنا– أن الجملة الفعلية قامت بدورها من حيث تعبيرها عن الحركة والتغيير، وما شابه، الذي عبَّر عنه الشاعر، وهو انطلاقة العمل الفدائي الذي يدلُّ على النهوض بعد الموت وعلى التحوُّل من السكون إلى الحركة ومحاولة التغيير.

وفي شعره شخصيات أخرى، منها ما يمُت إلى السياسة، مثل " هارون الرشيد " ، كما في قصيدة " منشورات فدائية على جدران إسرائيل "، ومنها ما يمت إلى الأدب الشعبي ، مثل الحسين و السندباد ،والحريري ، وغيرهم كما في قصيدة " إفادة في محكمة الشعر "التي ألقاها في مهرجان الشعر التاسع الذي انعقد في بغداد في نيسان /1969/ م .

أمَّا ماهو عام من هذه الشخصيات التراثية " أو ما يمكن تسميته بالأنموذج التاريخي " (20) مثل: شخصية الخليفة ، أو الجلاد ، أو الخارجي ، أو السلطان، أو غيرها ، فيمكن أن نمثِّل له بقوله :

مزِّقوا جبَّة الدراويش عنكم و اخلعوا الصوف أيُّها الأتقياء
اتركوا أولياءنا بسلام أيِّ أرض أعادها الأولياء (21)

فالدراويش، والأولياء أسماء استمدها الشاعر من التراث، ولكنها لا تدلِّ على شخص بعينه، وما يهمِّه منها هو ما ترمز إليه فقط.

ويقول في قصيدة " هوامش على دفتر النكسة " مستدعيا شخصية الجارية:

((كان بوسع نفطنا الدافق في الصحاري / أن يستحيل خنجرا من لهب ونار / لكنه / واخجلة الأشراف من قريش / وخجلة الأحرار من أوس ومن نزار / يَراق تحت أرجل الجواري .))

ويقول في القصيدة نفسها: **((لو أحدٌ يمنحني الأمان / لو كنت أستطيع أن أقابل السلطان / قلت له: يا سيِّدي السلطان / كلابك المفترسات مزَّقت ردائي / ومخبروك دائما ورائي .))** (22) لا يشير النص إلى شخصية تراثية بعينها، وإنما يستدعي الشخصية النموذج –السلطان، والجارية، والولي، و ... – بما تحمله من دلالات خاصة بها؛ ليسقطها على الواقع الذي أراد التعبير عنه، ويلاحظ على هذه الشخصيات المستدعاة –هنا– أنها ذات دلالات سلبية تعمِّق إحساسنا بالواقع الذي عبَّر عنه الشاعر في تلك المرحلة.

توظيف الشخصيات التراثية في شعره:

يرتبط توظيف الشخصية التراثية في الشعر العربي الحديث بهموم الشاعر وتطلعاته، وهي هموم تختلف من شاعر لآخر تبعاً لانتمائه ومشاغله. إن ما يشغل أدونيس هو نهوض الأمة وانبعاثها من رقادها، فكان عبد الرحمن الداخل رمزاً – بين رموز كثيرة – لذلك في شعره ، وما يشغل البياتي هو قلق الإنسان ومعاناته في زمن طغى عليه الاستبداد ، فكان الحلاج والمعري رمزين كبيرين –بين رموز أخرى– للتعبير عن همومه وقلقه ومحنة العصر، وأحياناً

يرتبط الشاعر باسم شخصية تراثية بارزة ، أو ترتبط الشخصية التراثية به ، لأنها تشغل مساحة كبيرة في شعره ، كما هو الحال مع شخصية " عمر الخيام " عند البياتي، وشخصية "امرىء القيس" عند الشاعر الفلسطيني عز الدين المناصرة، وشخصية " سيف بن ذي يزن " عند الشاعر اليمني الدكتور عبد العزيز المقالح.

هذا التلازم نفتقده عند الشاعر نزار، إذ يصعب أن نرى عنده رمزاً ملازماً له في أي مرحلة من مراحله سواء ما يتعلق بموضوع المرأة أم ما يتعلق بموضوع الوطن . إلاّ أنه كان يوظف الشخصية التراثية – غالباً – في خدمة هذين الموضوعين الكبيرين : المرأة والوطن اللذين يشكلان هماً كبيراً من همومه ، فالمرأة العربية واقعة تحت ثقل أعباء كثيرة تقيِّدها وتحدُّ كثيراً من طاقاتها ، مردُّ ذلك إلى الرجل الشرقي ، المستبدِّ ، والمتفرّد في رأيه.

ولذا يلجأ نزار إلى التراث مستعيراً منه شخصيتين : عنترة ، وهارون الرشيد موظفاً إياهما رمزين متنوعين لصورة هذا الرجل المستبد – كما مرّ سابقاً – وإذا كان قد وُفِّق في استدعاء هارون الرشيد ، فإنّ التوفيق قد جانبه في حالة عنترة ، إذ ليس هناك من صفات مشتركة بين الحالة التاريخيّة والحالة الراهنة ، وإذا كانت القوة تجمع بين الحالتين ، فهناك فرق كبير في توظيفها لدى عنترة ولدى الرجل الشرقي. وإنَّ الاستخدام الشعبي لتعبير " العنتريات " لا يقلل من أهمية هذه الملاحظة.

وغالباً ما يتكىء الشاعر نزار على الجوانب السلبية في الرموز التراثية المتصلة بموضوع المرأة، علماً أن هذه الرموز تحمل دلالات متنوعة ، بعضها إيجابي ، ومع ذلك فهو لا يوظف منها إلا دلالاتها السلبية ، كما فعل مع عنترة وهارون الرشيد في الشواهد السابقة.

أمّا التوظيف الآخر والبارز في شعره، فهو ما كان لخدمة الوطن ، وإبرازه بالصورة التي يستحقها، وهو – في سبيل ذلك – ينوّع في استدعاء الشخصيات التراثية " دينية، و شعرية ، وغيرها " ، كما رأينا في فقرة " الشخصيات التراثية وموضوع الوطن ".

مزالق استخدام الشخصيات التراثية في شعره:

إنَّ الإشارة إلى بعض الهنات في استخدام الشاعر للشخصيات التراثية، لا تؤثر مطلقاً على قيمته، ولا تطال مكانته الكبيرة في ديوان الشعر العربي الحديث، إنها ملاحظات يجب الإشارة إليها حتى تكتسب هذه الدراسة مشروعيتها، وموضوعيتها.

أوّل هذه الملاحظات، هو ضعف السمات الدالة بين الشخصية المستدعاة والحالة التي أراد التعبير عنها، ويمكن التمثيل على ذلك باستدعاء شخصية "عنترة " في قصيدة " رسالة إلى رجل ما " جاعلاً من هذه الشخصية التراثية رمزاً للرجل الشرقي الذي يستعمل القوة والإكراه في تعامله مع المرأة ، وليس الحجة والرأي والإقناع:

عنترة العبسي خلف بابي / يذبحني...

إنَّ التاريخ يقدّم لنا عنترة في صورة زاهية ومشرقة من وجوهها كلها، فهو العاشق المخلِص لابنة عمه عبلة ، وهو الباحث عن انتماء من أجل إثبات ذاته ، وهو أخيراً الفارس الشجاع المدافع عن القبيلة في وجه الأعداء ، فهذه الوجوه الثلاثة لعنترة وجوه مضيئة ، ولا صلة لها بالرجل الشرقي المستبد.

إنَّ ذلك يؤدي إلى عدم تحقيق العلاقة الجدلية بين الموضوعة التاريخيّة والموضوعة المعاصرة التي وُظف التراث من أجلها – كما يقول طراد الكبيسي – (23).

ومما يلاحظ في هذا المجال كثرة استدعاء الشخصيات التراثية في النص الواحد ، مما يشتت الذهن ، ويضعف كثافة الرمز وتأثيره ، ويمكن التمثيل على ذلك بقصيدة " منشورات فدائية على جدران إسرائيل " ، التي استحضر فيها

تسعة أسماء هي : خالد ، وعمرو ، وموسى ، وعمر ، وامرؤ القيس ، وأبو تمام ، وهارون الرشيد ، والحسين ، وفاطمة الزهراء. فإذا استطعنا أن نجد سمات مشتركة بين بعض الأسماء ، فإنه يستحيل علينا أن نجدها بين جميعها (24) .

ومن الناحية الفنيّة فإن تعامل الشاعر مع الشخصيّة التراثية محدود الدلالة من جهة ، وبعيد عن نسيج القصيدة من جهة أخرى . إن الرمز التراثي دائماً مشعٌ ومفتوح على دلالات متعددة ، فعبد الرحمن الداخل عند أدونيس رمز تراثي متعدد الأبعاد ، وكذلك الحطيئة والخنساء عند ممدوح عدوان ، أما الشخصية التراثية عند نزار قباني ، فإنها رمز ذو دلالة محددة جداً في جانب ضيق من جوانبها ، كما رأينا في عنترة العبسي وهارون الرشيد ، أوفي غيرهما .

وإنَّ رمز الشخصية التراثية – من جهة ثانية – يبقى مقحماً على النص الشعري ، وليس داخلاً في تركيبه ، ففي قوله :

((رجالنا يأتون دون موعدِ / في غضب الرعد ... وزخات المطر / يأتون في عباءة الرسول ... / أو سيف عمر)) (25).

يبدو الاسم التراثي " عمر " مرتبطاً بما قبله بعلاقة نحوية " مضاف ومضاف إليه " ويمكننا الاستغناء عنه ووضع أي اسم تراثي آخر مكانه–خالد بن الوليد سيف الله المسلول مثلا– دون أن يختلّ المعنى ،مع مراعاتنا لسلامة المبنى، وهذا كثير في شعره (26) .

وغالباً ما يقدّم الشاعر رمزه التراثي في صورة بلاغية تقليدية " علاقة تشبيهية " ، هي أقرب إلى فترة بداية التعامل مع التراث في بداية القرن الماضي وهذا كثير – أيضاً – في شعره (26) ، كما في قوله في قصيدة " إفادة في محكمة الشعر " :

إنني السندباد مزّقه البحر	**وعينا حبيبتي مينـاء**
.....	.....
المقامات لعبة والحريري	**حشيش والغول والعنقاء**
مرّ عامان والمسيح أسير	**في يديهم ومريم العذراء**

خاتمة:

أظهر البحث علاقة الشاعر بالتراث، التي ترجَّحت بين قبوله له تارة، ورفضه له، ودفاعه عنه تارة أخرى، وأظهر توظيفه له في موضوعين: المرأة، والوطن، كما لاحظ كاتب البحث أنَّ الشاعر لم يرتبط برمز تراثي محدَّد، فما يعنيه من الرموز التراثية مدى إغنائها لموضوعه الشعري.

وذكر البحث بعض المزالق التي وقع فيها نزار حين استخدم الشخصيات التراثية في شعره، منها ضعف السمات الدالة بين الشخصية المستدعاة والحالة التي أراد الشاعر التعبير عنها، كما فعل مع عنترة، ومنها كثرة استدعاء الشخصيات التراثية في النص الواحد، كما في قصيدة/منشورات فدائية على جدران إسرائيل/. ومن ذلك أيضا أن الشخصية المستدعاة في شعره تكون مقحمة –أحيانا–، وذات دلالة محدودة أحيانا أخرى.

وربما شكَّلت هذه الدراسة دافعا لدراسات أخرى تبحث في علاقة الشاعر بالتراث كله، وليس فقط في علاقته بشخصياته، مما يفتح المجال لمعرفة أوسع، وفهم أعمق لشعر نزار قبَّاني.

هوامش:

1-ينظر: د.الكركي ، خالد ، الرموز التراثية العربية في الشعر العربي الحديث ، دار الجيل ، بيروت ، مكتبة الرائد العلمية ، عمان ، ط1 1989 ، ص 16 .

2-د. زايد، علي عشري ، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر ، طرابلس ، ط1 1978 ، ص 19 .

3-الكبيسي ، طراد ، التراث العربي كمصدر في نظرية المعرفة والإبداع ، منشورات وزارة الثقافة والفنون ، بغداد ، العراق ، 1978 ، ص 11 و 12 .

4-قباني ، نزار ، ما هو الشعر ؟، منشورات نزار قباني ، بيروت ، ط1 1981 ، ص58 ، وينظر: قباني، نزار، قصتي مع الشعر، منشورات نزار قباني ، بيروت ، ط1 1973، ص90 .

5-قباني ، نزار ، ما هو الشعر ؟ ، ص 113 و127 .

6-ينظر: قباني ، نزار ، قصتي مع الشعر ، ص 17 و 189 .

7-ينظر: قبَّاني، نزار، ما هو الشعر، ص43، و57.

8-قباني ، نزار ، ما هو الشعر ؟ ، ص 166 و 167 .

9-قباني، نزار، الأعمال الشعرية الكاملة، منشورات نزار قباني، بيروت، لبنان، ط12، ج1 ، 1983م، ص165 ذكر الشاعر في قصيدة " طائشة الضفائر " في ديوان " طفولة نهد " قوله:

تقولين: الهوى شيء جميل ألم تقرأ قديماً شعر قيس

وذكر أيضاً في قصيدتي " أوعية الصديد " و " خبز وحشيش وقمر " اسم " عبد الحميد " في الأولى ، واسم " أبي زيد الهلالي " في الثانية ،ج3،ص24. إن ورود هذه الأسماء الثلاثة فقط في هذين الديوانين لا يؤثر في ما ذهبنا إليه في المتن .

10-ينظر: د.الكركي ، خالد ، الرموز التراثية العربية في الشعر العربي الحديث، ص 5 .

11-لقد استدعى في ديوانه " مئة رسالة حب " العديد من الشخصيات التراثية، ينظر: قباني، نزار، الأعمال الشعرية الكاملة، ج2، ط6، 1986م، الصفحات:400، و407، و417، و533، و547 .

12-قباني ، نزار، الأعمال الشعرية الكاملة، ج1، ص575.

13-المصدر السابق، ج1، ص608 .

14-الأعمال الشعرية الكاملة ، منشورات نزار قباني ، بيروت ، ط12 1983 ،ج1،ص 544 .

15-المصدر السابق ، ص 549 .

16-ينظر: ديوان ديك الجن الحمصي ، جمع وتحقيق مظهر الحجي ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، 1987 ، ص 14 .

17-قباني ، نزار ، الأعمال السياسية الكاملة، ج3، دون ط، ودون تاريخ، ص182.

18-ينظر: المصدر السابق، القصيدة نفسها .

19-قباني ، نزار ،الأعمال السياسية الكاملة،ج3،ص140.

وينظر أيضاً: قصيدة " إفادة في محكمة الشعر " ص391، التي استدعى فيها شخصية "المسيح" .

20- د. زايد ، علي عشري ، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر ، طرابلس ، ط1 1978م ، ص 166 .

21- قباني ، نزار ، الأعمال الشعرية الكاملة، ج3، ص407.

22- المرجع السابق ، ص99 . وقد تكررت كلمة /السلطان/ أربع مرَّات في الصفحتين108،و109.

23- الكبيسي، طراد، التراث العربي كمصدر في نظرية المعرفة والإبداع، ص11 و 12 .

24- ينظر: الأعمال الشعرية الكاملة ، ج3، قصيدة " حوار مع أعرابي أضاع فرسه " ، ففيها استدعاء لجرير، والخنساء، وعنترة، ومعروف الإسكافي، وفيها ذكر لقصة داحس والغبراء، وفيها أسماء مواضع " نجد ، الربع الخالي، عكاظ "، ص215 . "

25- قباني ، نزار، الأعمال السياسية الكاملة،ج3،ص179.

26- من ذلك قوله في قصيدة " إفادة في محكمة الشعر " :

فجراح الحسين بعض جراحي وبصدري من الأسى كربلاء

ينظر: المصدر السابق، ج3، ص394.

27- من ذلك قوله في ديوان " يوميات امرأة لامبالية ":

فكل رجال بلدتنا / هم السيَّاف مسرور.

وقوله: **وعند منصَّة القاضي / صرخنا " واكرامَتَنا .../ وبرَّمنا كعنترة بن شدَّاد شوارينا .**

قباني، نزار، الأعمال الشعرية الكاملة، ج1، ص633، و639.

المراجع:

1- ديك الجن، ديوان ديك الجن، جمع، وتحقيق مظهر الحجي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق1987م.

2- قبَّاني، نزار، الأعمال الشعرية الكاملة، منشورات نزار قباني، بيروت، لبنان، ط 2آب 1998م.

3- قبَّاني، نزار، قصتي مع الشعر، منشورات نزار قباني، بيروت، ط1 ، 1973م .

4- قبَّاني، نزار، ما هو الشعر، منشورات نزار قباني، بيروت، ط1 ، 1981م .

5- د. زايد، علي عشري، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر ، طرابلس ، ط1 ، 1978م .

6- الكبيسي، طراد، التراث العربي كمصدر في نظرية المعرفة والإبداع ، منشورات وزارة الثقافة والفنون، بغداد، العراق، 1978م .

7- د. الكركي، خالد، الرموز التراثية العربية في الشعر العربي الحديث، دار الجيل، بيروت، مكتبة الرائد العلمية، عمان، ط1 1989 م.